

صعاليك الصحافة...

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

لما ظهر كتابي (وحي القلم) حملت منه إلى فضلاء كتابا في دور الصحف والمجلات أهديه إليهم ليقرأوه ويكتبوا عنه . وأنا رجل ليس فيّ أكثر مما فيّ، كالنجم يستحيل أن يكون فيه مستنقع . فما أعلم في طبعي موضوعاً للنفاق تتحول فيه البصلة إلى تفاحة ، ولا مكاناً من الخوف تنقلب فيه التفاحة إلى بصلة . ولست أهدي من كتي إلا إحدى هديتين : فإما التحية لمن أثنى بأدبهم وكفائتهم وسلامة قلوبهم ؛ وإما إنذار حرب لغير هؤلاء .

والقرآن نفسه قد أثبت الله فيه أقوال من عابوه ليدل بذلك على أن الحقيقة محتاجة إلى من ينكرها ويردها ، كما جئنا إلى من يقر بها ويقبلها ؛ فهي باحدهما تثبت وجودها ، وبالأخر تثبت قدرتها على الوجود والاستمرار . والشعور بالحق لا يخرس أبداً ، فإذا كانت النفس قوية صريحة مرّة من باطنها إلى ظاهرها في الكلمة الخالصة ، فإن قال لا أو نعم صدق فيهما . وإذا كانت النفس ملتوية اعترضته الأغراض والدخائل ، فرّ من باطن إلى باطن حتى يخلص إلى الظاهر في الكلمة المقلوبة ، إذ يكون شعوراً بالحق يغطيه غرض آخر كالخسد ونحوه ، فإن قال لا أو نعم كذب فيهما جميعاً .

وكنت في طوافي على دور الصحف والمجلات أحسن في كل منها سؤالاً يسألني به المكان : لماذا لم تنجح ؟ فأني في ابتداء أمرى كنت نزعت إلى العمل في الصحافة ، وأنا يومئذ متعلم ربيّض ومتأدب ناشئ ، ولكن أي رحمه الله ردني عن ذلك ووجهني في سبيل هذه والحمد لله ، فلو أثنى نشأت صحافياً لكنت الآن كععض الحروف المكسورة في الطبع . . .

وللصحافة العربية شأن عجيب ، فهي كلما تمّت نقصت ، وكلما نقصت تمت ، إذ كان مدار الأمر فيها على اعتبار أكثر من يقرأونها أنصاف قراء أو أنصاف أمّتين . وهي بهذا كالمطبعة لتعليم القراءة الاجتماعية أو السياسية أو الأدبية ، فتمامها بمرعاة

طيرانها وذكر لي أن المنطقة التي صادفناها كانت من أكبر ما تلي من الفراغ مذركب طائرة

وقد علق بذهني هذا ودار في نفسي من يومئذ فأضفته إلى ما كنت أعرف من فضل المقاومة بل ضرورتها فأني عاجز عن تصور حياة لا يلقى فيها الحى مقاومة . وكيف تكون يا ترى هذه الحياة إذا أمكن أن توجد حياة على هذا النحو . . لا أدري ولا أحسب أن أحداً يستطيع أن يزعم أن في وسعه تخيلها . . ماذا يدفع فيها إلى العمل ويفرى بالسعى . . ويبعث على الطموح . . الذى هو الوسيلة إلى حفظ النوع في الدنيا ؟ كيف يكون حينئذ ولا مقاومة هناك ولا عائق ولا صعاب ولا عراقيل ولا حواجز من العرف أو القانون أو غير ذلك . . أترأه عبثاً ومسلاة . . وكيف تكون له لذة اللهو ومتعة العبث ومزية التسلى وهو لا يمكن أن يوجد أصلاً . . أم ترى ينحط فينقلب مجرد رغبة عارضة واشتهاء زائل بزوال دواعيه الزقية . . وكيف تنشأ الرغبة وماذا يشحذ الشهوة ولا شيء هناك من قبيل الموانع

ودع الحب وانظر في غيره واسأل نفسك ماذا عساك أن تطلب حينئذ ولا عسر هناك ولا عناء ولا خوف من حرمان لأنه لا عقبة هناك ولا صعوبة ولا مقاومة من الأحوال أو الحظ أو الناس أو التنافس أو غير ذلك مما تكون به المقاومة . .

ويطول بي الكلام إذا أنا أحببت أن أتقصى وجوه هذا الأمر : وما الداعي إلى الاطالة والمسألة واضحة . كلام أخسر بأن خلقت في هذا الزمن . ولا خسر أحد شيئاً بأن خلق في زمنه وإنما ينظر الانسان إلى ما هو مستطيع ويقبسه إلى ما يشتهى فيرى البون عظيماً والبعد كبيراً والمسافة طويلة بين المطلوب والموجود ، فيتوهم أن ذلك إنما كان هكذا لأن في الزمن عيباً وفي أحواله فساداً ، وأنه لو كان في زمن آخر لكان حقيقاً أن يكون أمله أقرب منالاً وسعيه أعظم توفيقاً . وهذا وهم كما قلت فإن رغائب الانسان في أي زمن أكثر مما يبلغ وينال . والذى يسمح لرغبته بأن تطغى إلى هذا الحد حتى لتصور أمر الحياة على هذا النحو المقلوب تكون شهوته أقوى من إدراكه أو إرادته أو أعصابه إذا شئت

ولم ألق صديقاً لا يبلغه أنى غيرت رأيت أو صححته ، فهأنذا أقول له ذلك في الرسالة ، إبراهيم عبد القادر المازني

من أسرار السخرية فينبغ في فنونها ، أو هو قد خلق بهاتين العينين
الجاحظتين دلالة عليه من القدرة الإلهية بأنه رجل قد أرسل
لتدقيق النظر

وقال الذي عرفتني به : حضرتة عمرو افندى الجاحظ ...
ودو أديب الجريدة

قلت : شيخنا أبو عثمان عمرو بن بحر ؟
فضحك الجاحظ وقال : وأديب الجريدة ، أى شحاذا الجريدة ،
يكتب لها كما يقرأ القارى . على ضريح ، بالريغ والجن والبيض
والقرش ...

قلت : إنا لله . فكيف انتهت يا أبا عثمان إلى هذه النهاية
وكنت من أعاجيب الدنيا ، وكيف خبت في الصحافة وكنت
رأساً في الكلام ؟

قال : نجت أخلاقى غابت آمالى ، ولو جاء الوضع بالعكس
لكان الأمر بالعكس . والمصيبة في هذه الصحف أن رجلاً
واحداً هو قانون كل رجل هنا

قلت : وذلك الرجل الواحد ما قانونه ؟
قال : له ثلاثة قوانين : الجهات العالية وما يستوحيه منها ،
والجهات النازلة وما يوحيه إليها ، وقانون الصلة بين الجهتين
وهو ...

قلت : وهو ماذا ؟
فخلق في وقال : ما هذه البلادة ؟ وهو الذى هو ...
أما ترى الصحيفة ككل شيء يباع ؟ وأنت غفرتى - ولك الدولة
والصولة عند القراء - ألم تر بعينك أنك لو جئت تدفع
ثمانمائة قرش ، لكنت في نفوسهم أعظم مما أنت وقد جئت
تهدى ثمانمائة صفحة من البيان والأدب ؟

قلت : يا أبا عثمان . فإذا تكتب هنا ؟
قال : ان الكتابة في هذه الصحافة صورة من الرؤية ، فإذا
ترى أنت في ... وفي ... وفى ... ؟ لقد كنا نروى في الحديث .
« يكون قومٌ يأكلون الدنيا بالسنتهم كما تلحس الأرض البقرة »
بلسانهم ؛ فعمل من هذه الألسنة الطويلة لسان صاحب الجريدة ...
قلت : ولكنك يا شيخنا قد نسيت القراء . وحكمهم على الصحيفة .
قال : القراء ما القراء . وما أدراك ما القراء . وهل أساس

قواعد النقص في القارى ... وما بد أن تنقيد بأوهام الجمهور
أكثر مما تنقيد بحقيقة نفسها . فهي معه كالزوجة التى لم تلد بعد ،
لها من رجلها من يأمرها ويجعلها في حكمه وهواه ، وليس لها من
أبنائها من تأمرهم وتجعلهم في طاعتها ورأيها وأدبها . ثم هي عمل
الساعة واليوم فما أبعداها من حقيقة الأدب الصحيح إذ ينظر فيه
إلى الوقت الدائم لا إلى الوقت الغابر ، ويراد به معنى الخلود لا معنى
النسيان

ولا يقتل النبوع شيء . كالعامل في هذه الصحافة بطريقها .
فإن أساس النبوغ (ما يجب كما يجب) ، ودأبه العمق والتغلغل
في أسرار الأشياء وإخراج الثمرة الصغيرة من مثل الشجرة الكبيرة
بعمل طويل دقيق . أما هي فأساسها (ما يمكن كما يمكن) ، ودأبها
السرعة والتصفح والالمام وصناعة كصناعة العنوان لا غير

فليس يحسن بالأديب أن يعمل في هذه الصحافة اليومية إلا
إذا نضج وتم وأصبح كالدولة على الخريطة ، لا كالمدينة في
الدولة في الخريطة ، فهو حينئذ لا يسهل محوه ولا تبدله ... ثم
هو عمدها بالقوة ولا يستمد القوة منها ، ويكون تاجاً من تيجانها
لا خريزة من خريزاتها ، ويقوم فيها كالمثارة العظيمة تلقى أشعتها
من أعلى الجو إلى مدى بعيد من الآفاق ، لا كصباح من مصابيح
الشارع

وحالة الجمهور عندنا تجعل الصحافة مكاناً طبيعياً لرجل السياسة
قبل غيره ، إذ كان الرجل السياسى هو صوت الحوادث سائلاً
وحجياً ، ثم يليه الرجل شبه العالم ، ثم الرجل شبه الممثل الهزلى .
والأديب العظيم فوق هؤلاء جميعاً ، غير أنه عندنا في الصحافة
وراء هؤلاء جميعاً

ولما فرغت من طوافى على دور الصحف جاءت هي تطوف
بى في نومي . فرأيت ذات ليلة أدخل إحداها لأهدى (وحي القلم)
إلى الأديب المتخصص فيها للكتابة الأدبية ، ودلوني عليه فإذا
رجل مربع مشوه الخلق صغير الرأس دقيق العنق جاحظ
العينين ، تدوران في محجريا دورة وحشية كأنما أرعبته الحياة
مذ كان جنيناً في بطن أمه لأنه خلق للا حساس والوصف ، أو
كأنما ركب فيه هذا النظر الساخر ليرى أكثر مما يرى غيره

الهزلية . وحفظ القرآن والحديث وكلام العلماء يضع في النفس قانون النفس ، ويجعل معانيها مهيأة بالطبيعة للاستجابة لتلك المعاني الكبيرة في الدين والفضيلة والجِدَّة والقوة ؛ ولكن ماذا تصنع الروايات والمجلات وصور الممثلات والمغنيات وخبر الطالب فلان والطالبة فلانة والمسارح والملاهي ؟

ويقول رئيس التحرير : إن الكاتب الذي لا يسأل نفسه ما يقال عني في التاريخ ، هو كاتب الصحافة الحقيقى ، لأن القروش هي القروش والتاريخ هو التاريخ . ومطبعة الصحيفة الناجحة هي بنت خالة مطبعة البنك الأهلى . ولا يتحقق نسب ما بينهما الا في إخراج الورق الذي يُصَرَّف كله ولا يرد منه شيء .

إنهم يريدون إظهار المخازى مكتوبة كحوادث الفجور والسرقة والقتل والعشق وغيرها ؛ يزعمون أنها أخبار تروى وتقص للحكاية أو العبرة ، والحقيقة أنها أخبارهم إلى أعصاب القراء ...

ودق الجرس يدعو أبا عثمان الى رئيس التحرير ..

لما بقية (ملظا) مصطفى صادق الرافعى

كتب بقلم محمد عبد الله عنانه

تحقيقاً لرغبة الكثيرين لعيد الفريضة المخفضة لبيع الكتب الثلاثة الاتية لمدة شهر فبراير

مصر الإسلامية

ثمنه ١٥ قرشا ويبيع بـ ١٠ قروش أى بتخفيض ٣٣ ٪

قصص اجتماعية

ثمنه ١٠ قروش ويبيع بـ ٦ قروش أى بتخفيض ٤٠ ٪

ابن خلدونه حياته ورائه

ثمنه ٨ قروش (مجلداً بالكرتون)

وثمن الثلاثة كتب معاً ٢٠ قرشاً أى بخفض ٤٠ ٪

هذا البريد وهو ثلاثة خمسة قروش داخل القطر وخمسة خارجة
والكتاب الواحد ثلاثة للداخل وخمسة للخارج وتطلب من إدارة الرسالة
ومكتبة النهضة بشارع المدانج وجميع المكتاتب الشهيرة

أكثرهم الا بلادة المدارس ، وسخافة الحياة ، وضعف الأخلاق ، وكذب السياسة ؟ إن الابداع كل الابداع في اكثر ما تكتب هذه الصحف ، أن تجعل الكذب يكذب بطريقة جديدة ... وما دام المبدأ هو الكذب فالمظهر هو الهزل . والناس في حياة قد ماتت فيها المعاني الشديدة القوية السامية ، فهم يريدون الصحافة الرخيصة ، واللغة الرخيصة ، والقراءة الرخيصة . وبهذا أصبح الجاحظ وأمثاله هم (صعاليك الصحافة)

ودق الجرس يدعو أبا عثمان الى رئيس التحرير ، فنهض اليه ثم رجع بعينين لا يقال فيهما جاحظتان بل خارجتان ... وقال : أف ، « وحيط ماصنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ، كلاً والذي حرّم التزيّد على العلماء ، وقبح التكلف عند الحكماء ، وبهرج الكذابين عند الفقهاء ، لا يظن هذا الا من ضل سعه ... » (١)

قلت : ماذا دهاك يا أبا عثمان ؟

قال : وبجها صحافة . قل في عمك ما قال المثل : جَحَظَّ اليه عمله . (٢)

قلت : ولكن ما القصة ؟

قال : وبجها صحافة . وقال الأحنف : « أربع من كنّ فيه كان كاملاً ، ومن تعلّق بخصلة منهن كان من صالحى قومه : دين يرشده ، أو عقل يسدّده ، أو حسَب يصونه ، أو حياء يقناه . » وقال : « المؤمن بين أربع : مؤمن بحسده ، ومنافق يغيثه ، وكافر يجاهده ، وشيطان يفتنه : وأربع ليس أقل منهن : اليقين ، والعدل ، ودرهم حلال ، وأخ في الله . » وقال الحسن بن علي ... (٣)

قلت : يا شيخنا دعنا الآن من الرواية والحفظ والحسن والأحنف . فاذا دهاك عند رئيس التحرير ؟ قال : لم أحسن المهاترة في المقال الذي كتبت اليوم ... ويقول رئيس التحرير : إن نصف التمويه رذيلة ؟ فإن نصفه الآخر يدل على أنه تمويه . ويقول : إن سمو الكتابة انحطاط فصيح ، لأن القراء في هذا العهد لا يخرجون من حفظ القرآن والحديث ودراسة كتب العلماء والفصحاء ، بل من الروايات والمجلات

(١) هذه الجملة من كلام الجاحظ

(٢) يريدون أنه إذا نظر في عمله رأى سوء ما صنع

(٣) هذه طريقة الجاحظ يخلط الكلام دائماً بالنقل